

سر البري

- ١ -

البري يري ويسمع ويفكر

بدأت حكاية فؤاد البري عندما رآه أبناء المخيم جالسا على حجره المعتاد قرب مدخل المخيم فقد بدا عليه الهم الشديد والقلق البالغ .

ولما كان أبناء المخيم يحبون فؤاد البري فقد راحوا يستفسرون منه عن سبب هذا القلق وذلك الهم . كان فؤاد صيبا في الثالثة عشرة من العمر . لا اهل له بعد ان فقد والديه وسائر اهله في الحرب ، ومع ذلك فان أبناء المخيم جعلوه يحس انهم عائلته الكبيرة . وكان في مقدوره ان يطرق اي باب في اي وقت فيجد الترحيب والحب ، لكنه كان يؤثر ان يقضي معظم وقته ، وخاصة في شهور الصيف ، تحت شجرة السرو الكبيرة .

ولهذا السبب اطلقوا عليه اسم البري، وعلى مر الايام نسي اهل المخيم اسمه الاصلي واصبحوا لا ينادونه الا باسم « البري » .
مرت عدة ايام على البري وهو يزداد قلقا وهما .. حاول الناس مرات ان يعرفوا سر قلقه ولكن دون جدوى .. ومع مرور الايام اعتاد الناس على رؤية البري مهوما ساهما .. حتى صديقه الشيخ ابو طالب صاحب دكان السمانة لم يتمكن من معرفة سره .
ولكن ، حدث بعد ذلك امر اثار قلق المخيم بامره ، عندما قيل ان البري قد اخفى ولم يعد يظهر في المخيم .

ثم حدث بعد اسابيع ما هو اخطر من ذلك حين جادت سيارات عسكرية كثيرة الى المخيم ، فامتلا بالجنود والضباط الاسرائيليين . وراح الضباط يوقفون كل شخص صغيرا كان ام كبيرا ويسالونه « اين البري ؟ »

وراح ضباط وجنود اخرون يبحثون في الاكواخ الصغيرة وفي الغرف ، وتحت شجرة السرو ، ويقلبون الاثاث ، ويعرثون الارض بجشا عن البري .

وهكذا اصبح البري وما يمكن ان يكون قد فعله هو الشغل الشاغل للمخيم .

كان الشيخ ابو طالب يرد على كل من يساله عن اخبار البري قائلا « الله وحده يعلم !! »

يقول البعض ان سر البري يبدأ مع بداية احتلال الاعداء لمنطقة المخيمات بما في ذلك القرى والمدن والمساحات الشاسعة من الارض . لكن قصة من يقول وعلى راس هؤلاء مختار المخيم !! ان سر البري

بدأ قبل ذلك بكثير - بدأ عندما قتل الجنود الغزاة في الحسرب السابقة والديه وافاربه ، وكان البري حينذاك طفل وقد وجد بيكي بجوار جسد امه الفارق في الدم وهو يصبح ماما دم .. ماما دم .
والحقيقة ان سر البري يبدأ - كما يقول مختار المخيم - منذ قتل والديه واهله . ولهذا السبب طرا تغيير واضح على تصرفات البري عندما عاد الغزاة بعد عشر سنوات مرة اخرى الى مخيمه .

فقد قل اهتمام البري باللعب مع رفاقه من أبناء المخيم ، ولم يعد يبحث عن شظايا الحديد وكرات الرصاص والعملات النحاسية القديمة ليبيها لتجارة « الخردة » . وسبب هذا التغيير ان البري احس انه منذ جاء الاعداء الى المخيم قد كبر كثيرا وادرك ان عليه ان يتوقف عن اشياء كثيرة تنتهي الى مرحلة الطفولة .

واصبح السؤال الذي يردده البري على نفسه ليل نهار هو : « ماذا

افعل الان ؟ »

واستعصى الجواب عليه فظل اياما كثيرة يفكر ويفكر ويفكر .

وذات يوم ، حين كانت السماء تمطر بشدة ، والرياح الباردة تهب على الاكواخ من كل صوب سمع البري صوت انفجارات عنيفة هزت اكواخ المخيم . وسمع رصاصا ينطلق بسرعة وصراخا متألما . فخرج على الفور من مأواه الشتوي ليرى جنودا كثيرين وسيارات ودبابات تملأ شوارع المخيم وتحاصره تماما . وسمع صوت احد الجنود الاسرائيليين يقول خلال مكبر الصوت : « ايها المخربون سلموا انفسكم » .

وللمرة الاولى عرف البري ان في المخيم - مخيمه هو بالذات - فدائيين ، فامتلا قلبه بالفرح وراح يدعو الله ان لا يسلم الفدائيون انفسهم للجنود الغزاة . واشتد صوت الرصاص ، ودوت انفجارات كثيرة ، وسمعت اصوات سيارات الاسعاف تنطلق صفاراتها المزعورة وهي تنقل الجنود الجرحى والقتلى من الاعداء، وعرف البري ان الفدائيين لم يسلموا انفسهم ، وعرف ان اربعة من الفدائيين قد استشهدوا بعد ان اطلقوا كل ما لديهم من رصاص . وعرف البري ، اكثر من ذلك كله ، ان « ابو درويش » الرجل الباس الذي يظنه الجميع معتوها ، هو الذي كان يخبئ الفدائيين في كوخه ، وانه قاتل معهم .. وجرح .
في اليوم التالي خرج البري مع اهل المخيم لنفن الفدائيين، وشاهد ابناء مخيمات اخرى يسرون خلف الجنابة ، وسمع بعض النسوة يزغردن ، ففجأ كثيرا لانه لم يسمع الزغاريد من قبل الا في الاعراس . وحسب قالوا له ان النسوة اللواتي يزغردن هن امهات الفدائيين وزوجاتهم لم يستطع ان يمنع نفسه من البكاء .

كيف تزغرد ام الفدائي لان ابنها قد قتل؟! ذلك ما ادعشه حقا،

غير ان الشيخ « ابو طالب » شرح له السر قائلا : « لا ينبغي ان يبكي احد على الشهداء » .

فعرف البري ان الناس في بلاده لا يكون على كل الاموات .
وعندئذ قال البري لصديقه الشيخ « ابو طالب » : « دلتني يا عمي الشيخ كيف اصبح واحدا منهم ؟ »
فقال ابو طالب : « الذي يريد ان يصبح فدائيا لا يسأل وانما يعمل » .
ومنذ ذلك اليوم راح البري يفكر كثيرا ، كثيرا في كلمات الشيخ « ابو طالب » .

بينما كان البري جالسا ذات مساء بجوار احد المقاهي سمع المذيع في « صوت الثورة » يحث الجماهير على المقاومة والصدور ، معلنا انه ستداع في الساعة الثامنة مساء بالسرعة الاملاية طريقة صنع قنبلة المولوتوف . وقال المذيع : « ان المواد التي تصنع منها قنبلة المولوتوف هي مواد في متناول الجميع لانها لا تكلف الا قروشاً زهيدة » .
بعد ان واطب البري على سماع الراديو عرف الكثير الكثير من الاشياء التي يمكن ان يفعلها الصغار ضد الفزاة المحتلين .
« ماذا الفعل حتى اصبح فدائيا ؟ ! » هذا هو السؤال الذي اصبح يشغل البري .

قال في نفسه : ساذهب الى الشارع الرئيسي واراقب سيارات الاعداء ودورياتهم .
ظل البري ثلاثة ايام كاملة يراقب السيارات ويعدها ، بل ويحفظ ارقامها ، وعدد من فيها ورتبهم العسكرية .
لكن البري لم يستطع ان يفعل اكثر من ذلك ، فقال في نفسه لماذا لا اتصل بالفدائيين ؟ !

وقرر ان يذهب الى المدينة فقد سمع بان الفدائيين يهاجمون كل يوم جنود الاعداء في المدينة . ولكنه قبل ان يذهب الى المدينة توجه الى صديقه الشيخ ابو طالب ، وقال له : قررت يا عمي الشيخ ان اذهب الى المدينة . تطلع الشيخ الى البري في دهشة وقال : ماذا ستفعل في المدينة يا ولدي لا احد لك هناك ، وستضيع فيها .

قال البري : « سابحت « عنهم » هناك » .
ضرب الشيخ ابو طالب بكف قائلا : « لا حول ولا قسوة الا بالله » .

وصمت الشيخ قليلا ثم قال : « اسمع يا ولدي ، اعرف انك اذا صممت على امر فلا بد من ان تنفذه ، فاذا كنت تنوي ان تكلمت في المدينة عدة ايام ، فانهب عند صديقي ابو سميج البويجي الذي يقيم في مخيم الشاطيء في المدينة واخبره ان عمك الشيخ « ابو طالب » قد ارسلك اليه ، فاذا اردت ان تعمل اي عمل فاطلب من « ابو سميج » ان يؤجرك صندوقا لمسح الاحذية ، وسيساعدك ما ستحصل عليه من مال في العيش بالمدينة » .

ثم ربت الشيخ ابو طالب على رأس البري في حب قائلا : « ولا تقب كثيرا عنا يا بري » .
فشكر البري الشيخ ابو طالب ، وتوجه الى الشارع الرئيسي ليسافر في باص المدينة .

- ٢ -

البري يذهب الى المدينة

نزل البري في المحطة الاخيرة بالمدينة مع سائر الركاب ، وراح يسأل عن مخيم الشاطيء فقيل له ان المسافة اليه بعيدة ولا بد من ركوب الباص لبلوغه ، ففعل البري ذلك ، وعندما وصل الى محاذاته سار نحوه بخطوات سريعة وهو يقول لنفسه : « يا لله كم تشبه الخيمات بعضها بعضا في كل مكان ! » .

ورأى البري مجموعة من الصبية يلعبون بالكرة في مدخل المخيم . ولما اقترب منهم توقفوا قليلا عن اللعب وراحوا يتهاصون وهم يراقبونه ،

لانهم راوا فيه صبيبا غربيا عن مخيمهم ، فتقدم البري منهم وقال : انا من مخيم الغازي ، وابحث عن « ابو سميج » البويجي . ولم يكذب انتهى من النطق باسم ابو سميج حتى لاحظ ان عيون جميع الصبية تنظر خلفه مباشرة ، فاستدار هو الاخر فرأى جنودا يهبطون من السيارات العسكرية وهم يحملون اسلحتهم في ايديهم .

وانتاب البري خوف شديد ، فلم يصد يدي ماذا يفعل ، لكنه فوجيء باحد الصبية يهتف قائلا : « بيع .. بيع .. » ولشده ما كانت دهشته عندما سمع الصبية الاخرين يرددون نفس الكلمة : « بيع .. بيع » ولم يفهم البري سبب ذلك ، وازداد عجبوه وهو يسمع اصواتا اخرى تردد تلك الكلمة ، وفي اقل من دقيقة واحدة امتلأ المخيم باصوات مختلفة تردد في نفس واحد : « بيع .. بيع » ووجد نفسه هو الاخر يردد الكلمة دون ان يدرك لذلك سببا معقولا .

وحسب البري ان جميع من في المخيم مجانين .. ولكن في تلك اللحظة بدأ الجنود يطلقون الرصاص على الناس . وسمع انفجارا عنيفا ، ورأى النار تلتهم احدى سيارات الاعداء . وفي نفس اللحظة شعر بييد نجذبه بقوة ، وصوت صبي غاضب يقول : لا تقف هكذا كالابله ، سيقنتك الرصاص .

ركض البري في اتجاه الصبي فاكشف انه احد الصبية الذين التقى بهم في مدخل المخيم ، فسأله ما الذي حدث ؟
قال الصبي : « لقد هاجمهم الفدائيون »
احس البري بقلبه يهوي .. ويهوي ، فها هم الفدائيون امامه ، فكيف يتصل بهم ؟

تطلع البري للصبي وحاول ان يقول شيئا ، لكنه لم يستطع .
قال الصبي : « دعنا نمضي من هنا قبل ان يقبضوا علينا » .
قال البري : « ولماذا يقبضون علينا ؟ »
رد الصبي في صبر ناذ : لاننا حذرنا الفدائيين واعطيناهم الاشارة .

فلم يفهم البري ، واخذ يركض بجوار الصبي ، وسأله : « ولكن كيف تحذرون الفدائيين ؟ »

قال الصبي وهو يزيد من سرعته : « الم تفهم ؟ لقد كنت تحلرهم معنا .. فعندما برى احدنا اية تورية عسكرية من الاعداء يسا فوراً بتريد كلمة « بيع » وعلى كل من يسمع الكلمة ان يرددوها بدوره .. وهكذا حتى تصل الكلمة الى اسماع الفدائيين الموجودين داخل المخيم ، فيحناطون ويأخذون استعدادهم الضروري » .

عجب البري كثيرا وهو يسمع كلام الصبي ، ودهش ايضا لانهم في مخيمه لم يكتشفوا بعد هذه الحيلة .

وسمع الصبي يقول : سيعانون الان منع التجول .. وسيبدأون في التفتيش ، فاذا وجدوك في الشارع واكتشفوا انك غريب عن المخيم فلن تفلت من ايديهم .

فسأله البري : « وما العمل اذن ؟ »
قال الصبي : « سأخذك الى بيتنا ، الا تريد مقابلة « ابو سميج » البويجي كما قلت ؟ »

فقال البري : « اجل .. هل تعرفه ؟ »
قال الصبي : « غدا صباحا سادلك عليه ، لان الاحوال الان في

المخيم سيئة كما ترى » .

قضى البري ليلته في بيت الصبي الذي اخبره ان اسمه رياض ، وحدثه تلك الليلة عن حيل كثيرة يقوم بها الصغار ضد الاعداء ..
قال له : « مثلا عندما نذهب الى المدينة نرش المسامير على اسفلت الشارع ، وعندما تمر سيارات الاعداء تنفوس المسامير فسي عجلاتها فتتوقف » .

وقال له ايضا : « عندما نجد سيارة للعدو تقف في مكان غير مراقب ، نرفع غطاء البنزين ونضع رملا كثيرا في مستودع البنزين

فيتعطل « الموتور » ولا تستطيع السيارة ان تسير بعد ذلك .
 واخير رياض البري انهم يكتبون على الجدران كلمات ضد
 الاعداء والخونة ، وانهم ينظمون مظاهرات ويقذفون الجنود بالحجارة .
 وحكى له قصة الفدائيين الستة الذين تحصنوا في احدى
 المدارس وظلوا يقاتلون الاعداء طوال نهار كامل حتى استشهدوا جميعا
 .. وقال رياض : « لقد كنا نسلمهم قبل ان يستشهدوا وهم يهتفون
 عاشت الثورة » .

واغرورقت عينا البري بالدموع ، كان البري يريد ان يفعل اكثر
 مما فعله الاخرون ، كان يريد ان يلتقي بالفدائيين ويصير واحدا منهم ..
 لذا سأل البري الصبي : كيف يمكنني ان اتصل بالفدائيين ؟
 فتطلع اليه رياض ، ثم ادار له ظهره هامسا « تصبح على خير » .
 وادرك البري انه اخطأ ، واداد ان يعتذر لرياض ، فسير ان هذا
 تظاهر بالنوم .
 ولم ينم البري تلك الليلة . لقد اكتشف وعرف امورا جديدة ،
 وطوال الليل كان يسمع اصوات السيارات العسكرية ، واصوات
 طلقات متفرقة .. وعجب كيف يمكن لرياض ان ينام بسهولة ومثل
 هذه الاشياء تحدث في الخارج .

في صباح اليوم التالي رافق رياض البري الى بيت « ابو سميح »
 البويجي ، ثم ودعه قائلا : نحن في المخيمات لا نسال ابدا عن مكان
 الفدائيين » .

فاوما له البري قائلا : « فهمت » .

وطرق البري الباب . فخرج له رجل بعين واحدة .. وسالته :
 « ماذا تريد ؟ »

قال البري : « اريد العم ابو سميح » .

قال الرجل : « وماذا تريد منه ؟ »

اجاب البري : « ارسلني اليه الشيخ ابو طالب من مخيم المغازي » .
 فابتسم الرجل : انا عمك « ابو سميح » ، تفضل .. كيف حال
 « ابو طالب » .

فحدثه البري حديثا طويلا ، عن احوال الشيخ .. ثم قال له انه
 ينوي ان يبقى يومين او ثلاثة في المدينة وانه يريد ان يعمل خلال
 هذه الايام ، ورجاه ان يؤجره صندوقا لمسح الاحذية . فقال له ابو
 سميح : « على العيسن والراس ، ومن اجل خاطر الشيخ ابو طالب انا
 على استعداد ان افعل اي شيء يامرني به ، فمتى ستبدأ العمل ؟ » .
 اجاب البري : « الان .. »

فاخضر ابو سميح للبري صندوقا تزين واجهته مرآة ، وقال
 له : « هذا افضل صندوق عندي ، ومن اجل خاطر عيون اخي « ابو
 طالب » سأخذ منك عشرة قروش اجرة اليوم » . فشكره البري وخرج وهو
 يعلق الصندوق على كتفه .

ظل البري يسير ويسير في الشارع الرئيسي ، وراح اثناء سيره
 يتطلع الى السيارات والدكاكين والناس .. وقال في نفسه : من المؤكد
 انني سألتقي في المدينة باحد الفدائيين .

وعندما وصل البري الى الميدان الكبير ، شاهد كثيرا من السيارات
 العسكرية التي نصبت فوقها مدافع مصوبة على الناس . كما لمح فوق
 سطوح البيوت عددا كبيرا من الجنود الذين يصوبون مدافعهم نحو
 الميدان ، وكانت عيونهم تراقب الناس في اهتمام بالغ .

وقال البري في نفسه : « ربما كان السبب في كثرة الجنود
 والسيارات في هذا المكان ان الفدائيين كثيرون هنا » . واقترب من
 احدى السيارات العسكرية ، فسمع صوتا ينادي قائلا : « تصال
 هنا يا ولد » .

نظر البري الى مصدر الصوت فرأى شابا يتطلع اليه .. فوقف
 البري حائرا برهة ، لا يدري هل هو المقصود ام لا .. وحاول ان يستمر

في سيره لكن صوت الضابط عاد يامره من جديد بان يتقدم نحوه . فتقدم
 البري صوب الضابط ، فاشار الضابط الى حدائه قائلا : « امسح لي
 الحذاء » .

وقف البري ساكنا امام الضابط كتمثال .

قال الضابط : « قلت لك امسح الحذاء » .

ولم يدر البري كيف قال للضابط : « لا اريد ان امسح » .

فظهر الغضب الشديد على وجه الضابط وصاح : « ماذا قلت
 يا عربي ؟ »

قال البري في عناد : « لا اريد ان امسح .. ولا يستطيع احد ان
 يجبرني على ان امسح حذاءه » .

تقدم الضابط نحو البري ، وهوى بيده بكل قوته على وجهه ، فترجع
 البري وسال الدم من فمه على الفور ، وسقط الصندوق على الارض .

وعاد الضابط يقول : « عندما امرتك بان تمسح الحذاء ، فيجب
 ان تمسحه ، هل فهمت ؟ »

قال البري وبعينه مغرورقتان بالدموع : « لا اريد ان امسح حذاءك » .
 هوى الضابط بيده مرة اخرى على وجه البري ، فسقط على

الارض وركل الصندوق بقدمه فتحطمت زجاجات البوية ، وتكسر لسوح
 الوراة المثبت على واجهة الصندوق ..

وسمع البري صوت الضابط يقول : « سنعلمكم كيف تردون على
 اسياكم بادب يا كلاب » .

ابتلع البري لعابه المزوج بالدم ، ومسح بطرف يده فمه ثم نظر
 الى يده فرأها ملوثة بالدم .. وتذكر هذه اللحظة « ابو طالب »

الذي نصحه بالابتعاد عن المدينة . وتطلع الى الناس الذين احاطوا
 به وفكر انه لو كان فدائيا لما تجرأ هذا الضابط على ضربه

واهانته . ثم تحامل على نفسه ، واخذ صندوق مسح الاحذية وتوجه وهو
 حزين القلب ، دافع العينين الى مخيم الشاطيء ، وحين وصل الى بيت

ابو سميح بدا الانزعاج على وجه الرجل ، وقال : « ماذا حدث لك ..
 ماذا فعلوا بك ؟ »

اجهش البري بالبكاء وحكى له ما جرى ، فربت ابو سميح على
 كتفه قائلا : « لا تحمل هما يا ولدي ، الصندوق ساصلحه . وخذ هذه

القطعة النقدية » . ولما رفض البري اخذها اصر ابو سميح قائلا :
 « اعتبرها ديننا ان شئت ، فافضال الشيخ ابو طالب علي كثيرة » .

عندئذ اعلن البري لابو سميح عن رغبته في العودة الى مخيم المغازي ،
 فتطلع اليه الرجل في حنان قائلا : كما تشاء يا ولدي ، كما تشاء .

— ٣ —

عودة البري

توجه البري فور وصوله مخيم المغازي الى دكان « ابو طالب » فقابل
 هذا عودته السريعة بشيء من الدهشة ، ولكن البري قال له : « لقد

حاولت ان اعثر على الفدائيين في المدينة ولم استطع ، فكيف اتصل
 بهم ؟ »

قال ابو طالب : « عليك اولاً ان تعرف كلمة السر » .

قال البري : « كلمة السر ؟ وما هي كلمة السر ؟ »

قال ابو طالب : « عندما تعمل اي شيء ضد الاعداء تكون قد نطقت
 بكلمة السر .. واصبحت واحدا من الفدائيين » .

وفكر البري قليلا ثم قال : « ما هي الشجاعة يا عمي الشيخ ؟ »

قال الشيخ : « الشجاعة هي الضمير » .

عندئذ قص البري على الشيخ كل ما جرى في المدينة والمخيم ،
 فقال له الشيخ : « الانسان يتعلم من تجاربه .. وهذا سيفيدك عندما

تشر على ما تريد » .

وبينما كان البري جالسا في احدى الليالي قرب خط السكة
 الحديدية الذي يمر من امام المخيم ، سمع اصواتا قريبة منه تتحدث

.. فراح قلبه يدق في عنف حتى انه خاف ان يسمعه المتحدثون .
 سمع احدهم يقول : « علينا ان نضع العبوات الناسفة في مكان اخر

بعيدا عن المخيم . فرد آخر : « اسكت ، لقد سمعت صوتا قريبا » .
وادرك البري أنهم قد سمعوه ، وسيعرفون مكانه ، فخاف أن يطلقوا
النار ، فقال في صوت مرتعش : « انا البري » .

وإذا بخمسة من الشباب يلتفون حوله ، ويمسكه احدهم من كتفه
بقوة ويقول له : « ما الذي جاء بك الى هنا في هذا الوقت ؟ »

قال البري : « انني اجلس دائما هنا .. واريد .. اريد ان
اصبح فدائيا مثلكم » .

ارخى الفدائي يده عن كتف البري ، وسمع واحدا يقول : « دعونا
نتشاور في امر هذا الصبي ، ما اسمك ؟ »

قال البري : « اسمي فؤاد ولكنني معروف باسم البري » .

وسمع البري الرجال يتحدثون بصوت منخفض . وبعد قليل قال
احدهم : « لكي تصبح فدائيا هناك شرط .. »

قال البري على الفور : « اشترطوا ما تريدون »

قال الفدائي : « عليك بالحصول على سلاح جندي من الاعداء .. فاذا
حصلت على السلاح تصبح واحدا منا .. هذا هو الشرط » .

ظل البري ساكنا ، فقد كان الشرط صعبا للغاية .

قال الفدائي : « ما رأيك ؟ »

اجاب البري : « ولكن كيف افضل ذلك ؟ » .

اجاب الفدائي : « عليك ان تعرف وحدك .. وعندما تنجح تكون قد
نظمت بكلمة السر واصبحت واحدا منا .

وسمع البري اصوات اقدامهم وهي تمتد عنه . فقال : « كيف
اتصل بكم عندما انفذ الشرط ؟ »

فرد احدهم : « عندما تنفذ الشرط سيمرف كل الفدائيين ، في
كل انحاء البلاد لانك ستكون قد نظمت بكلمة السر » .

عندما عاد البري الى المخيم كان فرحا لانه التقى بمجموعة من
الفدائيين ، ولانه سيصبح واحدا منهم اذا نجح في تنفيذ الشرط .

وراح طوال الليل يتخيل انه اصبح فدائيا . ولكنه في الصباح
ادرك ان الاحلام تختلف كثيرا عن الواقع ، وتذكر الشرط الصعب
فسيطر عليه الهم ، وحاصره التفكير ، فراح يسير على غير هدى في
شوارع المخيم الى ان وصل الى دكان الشيخ « ابو طالب » وحين رآه
ابو طالب على هذا النحو ساله :

« ما بالك تبدو مهموما الى هذا الحد يا بري ؟ »

لكن البري رد قائلا : « هذا سر » .

فابتسم ابو طالب ، وقال : « الان بدأت يا بري تقترب من الهدف » .
وقبل ان يتصد البري عن لسان « ابو طالب » سمعه يقول :

« لقد نسفوا الليلة الماضية خط السكة الحديدية شمال المخيم .

فقال البري في نفسه : « اعرف هذا » .. واحس بالزهو والفخر
لانه اصبح يعرف الكثير من الاشياء التي لا يعرفها ابناء المخيم .

ولكن الحيرة عادت اليه من جديد وهو يفكر في الشرط الصعب ،
وقال يحدث نفسه : « حتى استطع ان احصل على سلاح جندي من
الاعداء لا بد ان اقتل جنديا من الاعداء : - وحتى استطع ان اقتل جنديا
من الاعداء لا بد ان احصل اولا على سلاح .. وحتى استطع ان احصل
على سلاح لا بد لي ان اقتل اولا جنديا من الاعداء .. »

وازدادت حيرة البري ، الا انه لم يحس باليأس فقد وعد
الفدائيين بان ينفذ الشرط .

وقال يحدث نفسه : « لو ان الشرط مستحيل التنفيذ لما طلب مني
الفدائيون هذا . ولا بد ان كل واحد منهم قد نفذ من قبل هذا
الشرط الصعب وحصل على سلاح من الاعداء ونطق بكلمة السر للاخرين
وما دام الامر كذلك فلا بد من تنفيذ الشرط .. ولكن .. كيف ؟ »

هذا ما ينبغي ان يفكر فيه البري الان .. وقد فكر طويلا ..
وتذكر ما قاله المدع في الراديو عن ما يمكن ان يفعله الصغار ضد
الاعداء واحس بالفرح .. وقال : « الان عرفت الحل » .

كان البري يعرف جيدا انه حتى ينفذ خطته التي توصل اليها لا
بد ان يحصل على ثلاثة اشياء : وهي زجاجة فارغة ، وكمية من زيت
التشحيم ، وكمية من البنزين . وقرر البري ان يبدأ بالحصول على
الزجاجة .

ذهب البري الى بائع المتعلقات ، واشترى زجاجة كازووة ، وقال له
البائع : « سارد لك باقي النقود عندما تعيد الزجاجة الفارغة » . وبعد

ان شرب البري ما في الزجاجة خبأها في مكان امين ، وقال : « يجب ان
احصل الان على زيت التشحيم » . وبالطبع كان في مقدور البري ان

يشترى الزيت مباشرة من محطة البنزين ، لكنه قال في نفسه ، ان
صاحب المحطة قد يشك في ، ويقول ما حاجة صبي مثلي لشراء الزيت ؟

ولهذا السبب قرر البري الحصول على الزيت بطريقة اخرى لا تثير
الشك . وتذكر محطة السكك الحديدية ، وانه كثيرا ما كان يرى طبقة

من الزيت الاسود في قاع الحفرة التي يستخدمها عمال القطارات
لتزيت عجلات القاطرة . فقرر البري ان يحصل على زيت التشحيم من

محطة القطارات القريبة من المخيم ، وطبعي ان يفكر البري في حيلة ذكية
للحصول على زيت دون ان يثير شكوك الجنود الذين يحرسون محطة

السكة الحديدية .

اخذ البري معه كرتة المصنوعة من القماش وتوجه الى المحطة ..
وراح يتظاهر باللعب بالكرة بقذفها ثم يمدو خلفها . وعندما اقترب كثيرا

من المحطة وتأكد من ان جندي الحراسة لا يراقبه صوب الكرة نحو
حفرة الزيت وقذف بها فسقطت داخل الحفرة . واقترب البري من

الحارس وقال له : هل تسمح لي ان اخرج كرتي من الخندق ؟ فنظر
الجندي الى البري في شك وقال : « ارنى هذه الكرة » . وعندما تأكد

الجندي من وجود الكرة سمح للبري ان يخرجها ، ونهاه عن اللصافي
هذا المكان مرة اخرى .

كانت الكرة تقطر زيتا فقد تشبع قماشها به . فاخذها البري وراح
يمدو صوب المخيم وتوجه الى المكان الذي اخفى فيه الزجاجة الفارغة .

وبعيدا عن عيون الناس بدأ البري يعصر الكرة من الزيت داخل
الزجاجة . وبعد ان انتهى من ذلك سد الزجاجة جيدا ، وحفر حفرة

صغيرة واوقف الزجاجة فيها واهال عليها التراب .

ثم قال البري لنفسه : « بقي البنزين ، وعلى الفور راح يمسح
يديه الملوطين بالزيت في ثيابه ، ثم توجه صوب محطة البنزين في

المخيم ، وقال لعامل المحطة ، اريد شراء بنزين لتنظيف ملابسي . فنظر
العامل الى ملابس البري الملوثة بالزيت ، وقال : « لدينا بنزين مخصوص

للتنظيف ، ثمن العلبة منه عشرة قروش » .

وهكذا حصل البري على الاشياء الثلاثة اللازمة لتنفيذ خطته :
البنزين ، الزيت والزجاجة . وقال يحدث نفسه : « عندما يحل الظلام

سأبدأ في تجهيز قنبلة المولوتوف تماما كما تعلمتها من الراديو .
سأصب البنزين فوق الزيت . واخلفهما ثم اصنع فتيلة من القماش

اضع جزءا منه داخل الزجاجة ، ولجزء الاخر خارجها ، ثم اسد
الزجاجة وعندئذ يصبح عندي قنبلة ، استطع بواسطتها ان احقق

الشرط الصعب » .

واصبحت لدى البري قنبلة ، مخبأة في مكان لا يعرفه مخلوق الا
هو .. وكان كلما سمع انفجارات قنابل الفدائيين يقول في ثقة ، لم
يبق سوى القليل ، وانفذ الشرط واصبح واحدا منهم .

- لكن : « على من ، واين ، ومتى ، التي قنبلتي ؟ »

هذا ما اصبح يفكر البري فيه ، غير انه تذكر الأيام التي راقب
فيها سيارات الاعداء ودورياتهم بينما كانت تسير على الشارع

الرئيسي ، وقال يحدث نفسه : « الان عرفت ان مراقبتي للشارع كانت
مفيدة .

عرف البري مثلا انه لا يصح ان يقذف بقنبلته المشتعلة على
احدى سيارات الجيب لانه لاحظ انها تكون متبوعة دائما بمسببة

بالخجل الشديد منه ومن الشيخ . ثم عاود الهكاه من جديد قبل ان يستغرق في النوم .

في صباح اليوم التالي توجه البري الى دكان الشيخ « ابو طالب » وكانت عيناه شديدي الاحمرار من كثرة ما بكى في الليلة الماضية . .
وحين رآه الشيخ قال له مذعورا :

« ماذا جرى يا ولدي ؟ »

احنى البري رأسه وراح يتطلع الى الارض ، وقال : « خبرني يا عمي الشيخ ، ما هو الخوف ؟ »

قال الشيخ : « الخوف هو العجز . »

قال البري : « وهل تخاف يا عمي الشيخ ؟ »

ضحك الشيخ طويلا وقال : « عمك ابو طالب يخاف من خياله . »
وصمت الشيخ قليلا ثم قال : « ولكن يجب ان لا نخاف مثل العصفور من الثعبان . »

فسال البري الشيخ : « وكيف يكون خوف العصفور من الثعبان ؟ »

قال الشيخ : « عندما يرى العصفور الثعبان ينسى العصفور من شدة الخوف انه عصفور وان له جناحين يمكن ان يحمله ويطير به بعيدا عن فم الثعبان . بل واكثر من هذا ينسى العصفور ان في مقدوره لو طار ان يترعرع عين الثعبان ، وان يقتله ايضا . »

وصمت الشيخ قليلا وقال : « هذا ما قصدته من حديثي عن خوف العصفور من الثعبان . »

أوما البري للشيخ قائلا : « فهمت . »

قال الشيخ للبري : « هناك شيء اخر ، اذا نسي الشخص منا الغاية والهدف من وراء عمله لا يسد حينئذ وان يصيبه الخوف والفشل . »

وعندما ابتعد البري عن دكان « ابو طالب » ظل يفكر في كلام الشيخ ، وامتلا قلبه بالتصميم على تنفيذ عمليته الليلة ، واقسم بان لا يسمح للخوف ان ينتصر عليه هذه المرة . . وقبل ان يصل الى شجرة السرو التقى بصديقه خليل ، فقال له : « ارى انك لم تناخر كثيرا في المدينة »

قال البري : « لقد فضلت العودة سريعا الى المخيم ، وقد سألت عنك امسى واخبروني انك غير موجود . . . اين كنت ؟ »

فيما التردد على خليل ، وتجاهل البري وقال : « كنت قد وعدتني يا بري انك ستخبرني عن سبب تغيبك عندي عندما تعود من المدينة »
وضع البري ذراعه على كتف خليل في مودة ، وقال له : « غدا ستعرفون كل شيء . . . »

كان البري يقف بجوار شجرة اللوز في نفس المكان الذي كان يقف فيه الليلة الماضية ، ولكنه في هذه المرة كان اشد تصميما .

قال في نفسه : « لو انني تذكرت امسى كيف ضربني الضابط في المدينة ما كنت خفت هكذا ، وقال ايضا : لو انني تذكرت شرط الفدائيين ما كنت قد سمحت للخوف ان ينسني اني احمل قنبلة وان في مقدور القنبلة ان تحرق السيارة بمن فيها . »

وتطلع الى نجمته في السماء وقال : « انت وحدك تعرفين سري . . وستكونين يا نجمتي شاهدة على صدقي ، وعلى شجاعتي في تنفيذ الشرط . . »

امسك البري بيده اليمنى القنبلة ، وتحسى بيده اليسرى ليتأكد

سيارات اخرى . وقال اذا القيت بقنبلة على سيارة جيب فمن المحتم ان يتم القاء القبض علي فوراً ، لذا استبعد هذه الفكرة ، وحاول ان يتذكر السيارات العسكرية الاخرى واوقات سيرها وعدد ركابها ، فأتشفت ان انسب سيارة للهجوم هي سيارة تبديل حراس محطة القطار القريبة من المخيم . فهي لا تحمل عادة اكثر من ثلاثة جنود من ضمنهم السائق . وتمر بعد غروب الشمس وذلك لاستبدال حراس النهسار بحراس الليل . وتبين ان هذا الوقت من انسب الاوقات للهجوم على السياوة لان المرور يكون قليلا على الشارع ، وهذا يعطيه وقتا اطول لتنفيذ العملية والاستيلاء على اسلحة الجنود والاختفاء من المنطقة قبل وصول اية قوات اخرى .

وحتى يزداد البري تأكدا اختار يوما لمراقبة الشارع الرئيسي . واطمان تماما الى صحة المعلومات التي لديه .

في الليل حمل البري القنبلة المولوتوف . واخذ معه علبه نقاب لاشمال القليل قبل فذف القنبلة بلحظات ، وتأكد من ان عيدانها تشتعل بشكل جيد . فتوجه في حذر بالغ صوب الشارع الرئيسي ، ولاحظ ان اضواء السيارات لا تكشف بعض اشجار اللوز المظلة على الشارع بسبب وجود منحني في تلك الناحية . لذا قرر ان هذا هو المكان المناسب لاختفائه في اليوم التالي ، ولتنفيذ العملية بنجاح والاختفاء بعد ذلك بسرعة .

وبعد ان خبا البري القنبلة بجوار جذع احدى اشجار اللوز ، هاد تلك الليلة الى المخيم . ومن الطبيعي ان يحس البري تلك الليلة باضطراب شديد ، فكل شيء في حياته اصبح متوقفا على نجاح العملية . وعندما حان الوقت توجه الى الشارع الرئيسي ، واقترب من شجرة اللوز التي يخبئ عند جذعها قنبلته ، واحس بان الوقت يمر ببطء شديد ، وراح يفكر في امور كثيرة . . تأمل السماء التي بدأت تمتلئ بالنجوم وراح يحرق فيها . . وتذكر ما كانت تحكيه ام صديقه خليل عن النجوم ، وقولها ان لكل انسان على وجه الارض نجمة ترعاه وتصونه وتحفظ اسراره ، وتحقق امنياته . فاخذ البري يبحث بعينيه عن نجمته واختار واحدة وراح يحدها ، ويرجوها ان تحقق امنيته الليلة حتى يصبح واحدا من الفدائيين .

اقترب موعد وصول السيارة . التصق البري بجذع شجرة اللوز ، مد يده الى القنبلة حاول ان يمسك بها لكن اصابعه كانت ترتعش بشدة فترك القنبلة في مكانها . هذه هي المرة الاولى التي يحس بها بمثل هذا الخوف ، ويشعر بساقيه تهتزان بشدة . جلس منكورا بجوار الشجرة وبدأ يبكي . رأى اضواء سيارة حراس المحطة تقترب . حاول ان يقف . لم يستطع . نظر الى نجمته في السماء وقال لها في رجاء « ساعديني » . . . حاول ان يقف . ساقاه تهتزان بشدة . رأى كيف ابطأت السيارة من سرعتها عندما وصلت المنحنى . كانت على بعد بضعة امتار من مكانه . كان بوسعه ان يقترب اكثر وان يقذف بقنبلته داخل السيارة تماما . . فينذ الشرط الصعب .

وتابع البري السيارة بنظراته ، وعرف انها ستعود بعد دقائق ، لكنها ستكون على الجانب البعيد وسيكون من الصعب ان ينفذ العملية .

اعاد البري القنبلة الى الخبايا ، وتوجه الى شجرة السرو ، واستند ظهره الى جذعها ، واستغرق في الهكاه وهو يدق بيديه ساقيه بقسوة : « ماذا سيول عنني الفدائيون لو عرفوا انني خفت ولم استطع تنفيذ الشرط ؟ » تذكر وجه رياض . تذكر ما تعلمه منه تلك الليلة . شعر

شمس جديدة في ترشيحا

وقلمت ظفر الضواري
طرقت عليك الجدار
طويلا .. طويلا
تقولين :
من يطرق الباب في الليل
موت قديم
تطاول في النفي فيك
تقولين أخطأت
هل تخطيء العين
تقولين أخطأت .. أخطأت
هل يخطيء القلب
تقولين أخطأت .. أخطأت
وحسبي منك
ومن فرط حبي
مع الريح .. والليل .. والبرد
طرقت عليك
حلب

وان يقصر الظل
فالفصن يعطي
- عصا الطاعة - العمر
عمرا ... ووصلا
طرقت الجدار عليك
طويلا ... طويلا
فلم تدمع العين منك
لم يفتح الباب بابا
لادخل
قلت اسمعيني
انا العشق كنت بعيدا
أخيط ثياب الطبيعة
لونا .. فلونا
لاعطيك فيها هموم البراري
انا الطين قلب المسافات
حنيت عمر التواريخ
خيطا .. فخيطا

تضيء الاماكن
طولا ... وعرضا
ضفاف المطر
وقلبي عليك انهمار الرصاص
اذا خالط الضلع
برد تعتق فينا طويلا
امر مع الحلم فيك
أقبل بهو الضيافة شوقا
فينفض عني قليلا ... قليلا
أشد على الريح
في قبضة الريح
اركض معها
لعل المسالك يوما تلاقي
حبيبين في الصحو
غصنا وظلا
اذا الفصن ارخى العنان
تمطى الحبيبان طولا

مع الفدائيين ، الا انه لاحظ بمد مسافة قليلة ان اثنين آخرين من الفدائيين قد انضموا اليهم ، وفي احد الانفاق وجد البري نفسه بين مجموعة من الفدائيين ،
قال البري : « انا الذي القيت القنبلة على السيارة .. اريد حقي »
وعلى ضوء الشمعة التي اشعلها احد الفدائيين لمح البري وجسه خليل ، وبدت الدهشة على الاثنين . وقبل ان ينطق احدهما بكلمة تقدم القائد من البري ومد له رشاشا سريعا وقال : « هذا حثك » . اغرورقت عيننا البري بالدموع وهو يحتفن مدفعه الرشاش ، ونظر الى صديقه خليل ، واندفع نحو عانقه بشدة وهو يبكي ويردد : « الم اقل لك انكم ستعرفون كل شيء في الفد » .

الخاتمة

وحتى اليوم فان الكثيرين من ابناء ذلك المخيم يستطيعون ان يؤكدوا انه منذ اختفاء البري تلك الليلة حدثت اشياء خطيرة في المخيم .. ويقولون ، انه بعد اختفائه اختفى صبية اخرون ، وان الشيخ « ابو طالب » نفسه اغلق الدكان واختفى مع ولديه ولم يعد يراهم احد . وان المخيم تعلم اشياء كثيرة وحيل جديدة يستخدمها ابناؤه كلما جاء الجنود الاعداء الى المخيم .
هذا ما نعرفه عن سر البري ، فاذا حدثت وعرفتم المزيد عن السر ، فهدار ثم حذار من ان تحدثوا كثيرا عنه ، لان هناك من يبحث عن البري الذي استطاع في تلك الليلة ان ينفذ الشرط الصعب وان ينطق بكلمة السر ويصبح واحدا من الفدائيين .

بيروت

من وجود الثقاب ، لم تكن اصابعه ترتعش هذه المرة .. كذلك لم تهتز ساقيه .

اخرج علبة الثقاب من جيبه . تناول منها عودا واستعد لاشعال الفتيل . دقيقة وتمر السيارة - ها هي اضواؤها تقترب من بعيد . يجب ان يقذف بالقنبلة الى داخل السيارة لتنفجر . السيارة تقترب اكثر واكثر من المنحنى ، وها هي النار تشتعل في الفتيل . ها هي السيارة تصبح في محاذة شجرة اللوز : « الان ، يا بري ، الان » .

اندفع البري وقذف القنبلة بأقصى قوته لترطم بمنف في الزجاج الامامي للسيارة وتحطمه وتشتعل النيران بشدة فيها بينما تعالت صرخات الجنود .. وراى البري السيارة ، تحرف بسرعة نحو الجانب الاخر من الشارع وتقلب على جانبها الايسر . ولكن لدهشة البري شاهد اثنين من الجنود يقفزان من السيارة ويطلقان الرصاص باتجاهه ، كيف لم يفكر في هذا ؟ لبيته اخبر صديقه خليل ، فلو كانت معه قنبلة ثانية الان لاختلف الامر .

قبل ان يركض البري في اتجاه الاشجار ، سمع رصاصا ينطلق من الناحية الاخرى فاستلقى على الارض وراح يشاهد ما يجري امامه على ضوء النيران ، وفوجيء البري بالجنديين يسفطان قتيلين على اسفلت الشارع بينما ارتفعت السنة النيران وهي تلتهم السيارة . وراى البري بعد ذلك شابيين يحملان الرشاشات ويتقدمان صوب الجنديين ويستوليان على سلاحيهما .

واندفع البري في اللحظة التالية صوب الفدائيين ، وهو يصيح : « لقد نفذت الشرط .. انا الذي القيت عليهم القنبلة » فدفع الفدائيان البري من كتفه قائلين : « فلننتعد عن هذا المكان .. » وبدأ البري يركض